الرسالات السماوية بين
التطور، والتجديد

أ. د. محمد شامة
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

الرسالات السماوية بين التطور ، والتجديد

خلق الله الإنسان ليكون خليفة له في الأرض ، قال تعالى : « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[1] ، لذا ميزه الله بالعقل على سائر الكائنات الحية ، ليستعين به في الانتفاع بما سخره الله له ، إذ أن الله سخر له ما في السموات وما في الأرض ، وكثيراً مما يسبح بينهما . . يقول الله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »[2] .

ويقول :

« ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض »[3] .

ويقول :

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[4] .

ولكي تكون له الحرية في التفكير والسلوك لم يجبره على سلوك طريقة معينة ، بل ترك له الخيار في أن يسلك ما يشاء في الانتفاع بما أعطاه الله ، وكان من الطبيعي أن يعجز هذا العقل عن الوصول إلى كنه الوجود ، وإلى معرفة ما يحدث له بعد الموت ، بل قد ثبت عجزه عن التوصل إلى نظام ثابت للحياة يحفظه من الدمار ويساعده ، على بناء مجتمع سليم متماسك .

ومن هنا أرسل الله له رسلاً ليبينوا له ما عجز عقله عن إدراكه ، وليوضحوا

(١) البقرة : ٣٠
(٢) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣
(٣) الحج : ٦٥
(٤) الجاثية : ١٢ ، ١٣

له ما خفي عليه من أحداث ما بعد الموت . فكان لكل قوم رسول .

يقول تعال :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره »[٥] .

ويقول :

« ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين »[٦] .

ويقول :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم »[٧] .

ويقول :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم »[٨] .

ويقول :

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون »[٩] .

ويقول :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين »[١٠] .

ويلاحظ في هذه الآيات أن كل رسول كان يبعث إلى قومه ، فهل كانت

---

(٥) الأعراف : ٥٩
(٦) الأعراف : ٨٠
(٧) الأعراف : ٨٤
(٨) الأعراف : ٧٣
(٩) الأعراف : ٦٥
(١٠) الزخرف : ٢٦ ، والشعراء : ١٨٣

الرسالات واحدة باعتبار أنها من مصدر واحد وهو الله ؟ أم أنها كانت متعددة باعتبار تعدد الأقوام واختلاف درجة حضارتهم ، وتنوع تقاليدهم وعاداتهم ؟

يرى بعض الباحثين أن الجنس البشري مر بمراحل في تطوره ثم يعقد مقارنة بينه وبين تطور نمو الطفل فيقول : « إن الجنس البشري بدأ كما يبدأ الطفل ، أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشري . ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن يسمى مرحلة الصبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تعد مرحلة شباب البشر ، ويستنتجون من هذه النظرية أن الرسالات كانت مختلفة ، إذ أن كل رسالة كانت تناسب كل طور من الأطوار .

سيطر هذا الرأي على جمهور العلماء قديماً وحديثاً حتى أصبح من المسلمات التي لا تنقض ، وكثيراً ما يستشهد المحدثون على هذا الرأي بنص للأمام محمد عبده في رسالة التوحيد يقول فيه :

إن الأديان خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية في دور الطفولة لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعاني مالا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، وكسبت ، وتخالفت ، واتفقت ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ونما بها الوجدان ، وبددت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها في الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس القلب والعقل ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم وهذا هو الإسلام .

ويرى أصحاب نظرية التطور في الرسالات السماوية - طبقاً لما عليه الجنس البشري من درجة التطور - أن كل مرحلة لها سمات خاصة تتفق مع درجة حضارة من أرسلت إليهم ، وعليه فقد قسموا الرسالات السماوية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ما كان في مرحلة الطفولة البشرية وتبدو ملامحه في :

١ - أن الدعوة كانت محدودة بقوم الرسول ، وأن كل رسول كان يبعث إلى قومه فقط .

٢ - أن ما تضمنته من مباديء ، كان في حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفريعات في جوانب الحياة المختلفة ، اللهم إلا ما كان من مرض اجتماعي تفشي في المجتمع حتى أصبح ظاهرة عامة فكانت الدعوة تنهي عنه وتحاربه .

٣ - أنه لم يكن للدعوة في تلك المرحلة كتب واضحة ، إنما هي بضع نصائح ، وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة .

٤ - أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ، إذ لم يحدد - مثلاً - العصر الذي أرسل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم . . . إلخ .

القسم الثاني : وهو ماكان في مرحلة « صبا البشرية » وكانت ملامحه أكثر تعقيداً وشمولاً . . . وتبدو مظاهره فيما يلي : -

١ - دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات ، ففي سفر التثنية :

« بخطيئته لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولايقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل »[١١] .

« إذا كانت خصومة بين أناس ، وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرروا البار ، وليحكموا على المذنب »[١٢] .

« إذا سكن أخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير إمرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذي يلده يقوم باسم أخيه الميت ، لئلا يمحي اسمه من إسرائيل »[١٣] .

٢ - أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ، ولكن معانيهما فقط هي

---

(١١) ٢٤ : ١٦

(١٢) ٢٥ : ١

(١٣) ٢٥ : ٥ - ٦

الموحي بها ، وصاغها البشر في عبارات ، وقد أصابها التحريف والضياع .

٣ - وجدت في هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة .

القسم الثالث : وهو ما كان في مرحلة « شباب الجنس البشري » فله ملامح خاصة وضحها هؤلاء العلماء فيما يلي : -

١ - اتضحت وحدانية الله وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسلام عهد جديد لا يقبل الشرك بأي صورة من صوره ، فالإسلام « فكرة تامة » لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً في الحس ولا في الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شيء .

٢ - أصبحت الدعوة لكل البشرية ، وأوصبح محمد رسولا للعالمين يقول تعالي :

« وما أرسالناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[١٤] .

٣ - ختمت الرسالات بدعوة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضاً ، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعي الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله .

٤ - ديانة الإسلام شاملة لأمور الدين والدنيا ، صورت لنا الله تعالى في سماه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر وراحت إلى أمور الدينا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة في الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب ، وكل حاجات الإنسان .

هذا هو مجمل رأى القائلين بنظرية التطور في الرسالات السماوية ، وهي غير سليمة ، إذ أنها ظهرت في الأوساط الفكرية متأثرة بنظرية داروين التي لم تسلم من النقد والتجريح ، ولذا لا يجوز أن يسلم بها علماء المسلمين ، لأن رأيهم -

---

(١٤) سبأ : ٢٨

بناء عليها – في تطور الرسالات السماوية :

* يتنافي مع الواقع .
* ويحمل في طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى .
* كما أنه يوحي بأن رسالة محمد ﷺ ليست خاتمة الرسالات .

أما أنه يتنافى مع الواقع ، فإن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور في أساليب الحياة المادية ، إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة كانت من الحجر في باديء الأمر ثم تطورت إلى مادة ثانية ، وثالثة ، . . . إلخ . كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة فناطحات السحاب بكل ما فيها من آلات تعمل بالطاقة على اختلاف مصادرها ، كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى بلغت السفن الفضائية .

فإذا كان هذا هو مقصدهم بالتطور ، فالإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات ، لأن البشرية قطعت في هذا السبيل منذ ظهور الإسلام حتى الآن أضعافاً مضاعفة لا يمكن مقارنتها بما قطعته بين موسى وعيسى ، أو بينهما وبين محمد ﷺ ، الأمر الذي حتم – بناءاً على رأيهم – أن تأتي رسالة محمد ، لأن مرحلة موسى وعيسى عليهما السلام كانت قد انتهت .

الشق الثاني : من التطور هو تطور عقلية الإنسان ، ومن المشاهد أن التطور في هذا الجانب ليس تطوراً بالمعنى الذي يقصدونه من التطور ، ذلك أنه لا فرق بين عقلية إنسان يعيش في القرن العشرين ، وآخر عاش فيما قبل الميلاد ، إلا في زيادة كمية المعلومات التي حصل عليها ابن القرن العشرين نتيجة التجارب البشرية .

أما التطورات في ذات العقل فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد في حياتنا

المعاصرة تنفي هذا ، إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطاً كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية حتى وصل إلى درجة مرموقة في مجال الفكر العالمي والآخر ظل مقيماً في بيئته لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد فالأول على رأي من يقول ، بنظرية التطور يمثل مرحلة « شباب الجنس البشري » والثاني يمثل مرحلة « الصبا » وربما مرحلة « طفولة الجنس البشرى » وهذا لا يقبله عقل ، فالإثنان في درجة واحدة من القوة الكامنة في العقل - وقد يكون الذي حرم من التعليم أكثر ذكاء من الذي تعلم - ؛ غاية الأمر أن الذي تعلم أتيحت له فرصة إظهار ما كمن في عقله من قوة على الفهم والإدراك وكان ذلك نتيجة ما حصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطوراً ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور في القرن العشرين فاقت - بمراحل عديدة - درجة التطور في القرن السابع الميلادي ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذي يتطلب رسالة جديدة .

وعليه فليس هناك تطور في العقل البشري ، بل زيادة في المعلومات ، ورسالة الإسلام جاءت لتخاطب العقل ، أياً كانت درجة معلوماته عن الحياة وما فيها ، وعن الكون وما يحتوي عليه من أسرار .

أضف إلى ذلك أن عملية التطور تسير في الحياة الإنسانية في خط متعرج ، فبينما يكون بعض المجتمعات قد قطع شوطاً كبيراً على طريق التقدم ، يكون هناك بعض آخر لازال في أول الطريق ، وثالث في منتصفه . . . وهكذا ، لأن عوامل التقدم والرقي ليست متاحة للجميع بنسب متساوية ، وهذا ما نشاهده اليوم في المجتمع الدولي ، إذ اصطلح على تقسيمه إلى دول متقدمة ، وأخرى نامية ، بل إن درجة التقدم متفاوته داخل المعسكر المتقدم ، وخطوات النمو مختلفة في دائرة مجموعة الدول النامية .

ومـا لنـا نذهب بعيـداً ، فنحن نرى داخـل المجتمع الواحد – سواء كانَ في جانب المتقـدمـين ، أوفي جانب المتخلفـين حضـاريـاً – تفـاوتاً كبيراً بين الأفراد والأسـر ، فبينـما يكون التمدن ، والتحضر واضحاً لدى أسرة ما ، أوفرد في أسرة يلاحـظ بجـوارهـا أسـرة أخرى ، أوفرد داخل الأسرة المتحضرة ، لا زال في أول طريق التحضر حسب المفهوم المصطلح عليه في مجال تحديد معنى التحضر .

فإذا طبقنـا نظـريـة التطـور التي يقـول بها بعض العلماء على واقـع الجنس البشـري ، فإننـا نجـد جزءاً منها تطور حتى وصل إلى مرحلة « الشباب » وجزءاً آخر وصل إلى مرحلة « الصبا » بينما نرى جزءاً ثالثاً لازال في مرحلة « الطفولة » فهو يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية .

وعليـه ، فيختلف – بنـاء على رأيهم – وضع كل منهم بالنسبة للرسالة التي ينبغي عليهم الإيمان بها ، إذ يلتزم من لازال في مرحلة « الطفولة » بالرسالة التي تخاطب الحس وهي في نظرهم رسالة موسى ، ويكلف من هم في دور « الصبا » برسالة عيسى ولا يكلف برسالة محمد ﷺ إلا من بلغ مرحلة « الشباب » فيكون هذا أشبـه بالفصـول الدراسية في المرحلة التعليمية ، حيث لا يقوى من التلاميذ على فهم مواد السنـة الأعلى إلا إذا درس مواد السنـوات التي قبلها ، وتهيأ ذهنياً لدراسة وفهم مواد السنوات العليا .

وهذا تصور خاطيء ، إذ لو سلمنا معهم بهذا ، لقسم المجتمع الواحد إلى فئات ، بل لقسمت الأسرة الواحدة إلى مجموعات ، وهذا أمر يثير سخرية أقل الناس ثقافة وإدراكاً لمفهوم رسالة الإسلام ، لأن الرسالة التي نزلت على محمد خاطبت جميع النـاس على اختـلاف مستـوياتهم الثقـافية ، وتفـاوت درجاتهم الحضارية ، إذ يفهم الرجل العادي القرآن الكريم ويدرك ما هو مطلوب منه في مجال العبادات والمعاملات ، كما يجد فيه أغزر الناس علماً ، وأوسعهم ثقافة في مجال العلوم الفلسفية مالم يجده في دهاليز الفلسفة وأضابير الحكمة من معطيات

علمية في مجال الحياة وآفاق الكـون ، فهو كتاب يجد فيه كل إنسان مبتغاه ، ويحصل منه على متعته الذهنية والروحية ، مهما كانت درجة هذا الإنسان في سلم الحضارة البشرية .

والقول بأن الرسالات السماوية خاطبت كل مرحلة على قدر طاقتها العقلية يحمل في طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى ، ذلك أننا في عالمنا البشري نصف الكاتب الذي يتمتع بأسلوب تفهمه قطاعات عريضة من الناس مختلفة في الثقافة ومتفاوتة في الرقي الحضاري ، بأنه بارع في كتابته ، لأنه استطاع أن يضع أفكاره في أسلوب لا يعجز عن فهمه أنصاف المثقفين ، ولا يمل من قراءته العلماء المتخصصـون !! . . . فإذا كان هذا شأن الإنســان المخلوق ، أفـلا يستطيع الخالق أن يصوغ أوامره ونواهيه في أسلوب يمكن أن يخاطب به كل الناس ، مهما اختلفت درجة حضارتهم ؟ !!!

بلى !!! لقد جاء القرآن الكريم بأسلوب يفهمه البدائي في كهفه ومغارته ، كما يدرك أسراره العـالم في حلقاته العلمية ، ومدرجاته الدراسية ، فهو لجميع الناس : أحمرهم ، وأسودهـم ، وأبيضهـم ، سواء كانوا في مجاهل الكرة الأرضية أو في بروجها وناطحات سحابها .

يرى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أنها تركزت في منطقة الشرق الأوسط نتيجة التطور الإنساني ، ويستدلون على ذلك بأن هذه المنطقة شهـدت أرقى حضـارات العـالم منـذ أقـدم العصور ، وكانت حضارتها أدبية وعلمية ، فهيأت شعوبها لتلقي الرسالات .

ويشير هذا التحليل إلى أن الشعوب تسير في خط مستقيم في بناء حضارتها وتقدمها على طريق الرقي والارتقاء ، ولكن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، فالمعروف أن هنـاك شعـوبـاً تقـدمت في حضارتها فترة ، ثم انتكست فعادت إلى الوراء خطوات ، قد تصل إلى حد أن ينكر بعض الباحثين على الأجيال التي عاشت عصور الانتكاسة ادعاءهم بأنهم أحفاد من بنوا هذه الحضارة المسجلة في آثارهم

ومتاحفهم .

وهناك أكثر من دليل على ذلك ، إذ تكفي نظرة واحدة إلى واقع أحفاد الفراعنة والأشوريين ، والفينيقيين ، فحضارة هذه الشعوب لا ينكرها أحد ، لأن آثارها لازالت تنطق بأنها كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقي ، لكن أحفادهم المعاصرين لا يملكون من وسائل الرقي والتقدم ما يجعلهم في مستوى أجدادهم في الحضارة ولا حتى في مستوى يقرب منهم . ألا يدل ذلك على أن ربط تطور الأديان السماوية بمسألة التقدم والرقي في المجتمعات الإنسانية أمر لا يستقيم فهمه ، لأنه يترتب عليه أن تتذبذب درجة الرسالات السماوية صعوداً وهبوطاً ، مع صعود ونزول درجة الحضارة في الشعوب !

واستدلال أصحاب نظرية التطور على صحة رأيهم بأن الدعوة في عصر « طفولة » الجنس البشري ، كانت محدودة ، ليس فيها تفاصيل ، وأنه لم يكتب لها كتب ، بل اقتصرت على بعض النصائح ، ولم يعرف لها تاريخ محدد ، وأنها كانت خاصة بقوم دون آخرين ، استدلال غير صحيح ، لأن ما نزل على محمد ﷺ ، هو الذي نزل على نوح عليه السلام - وهو من رسل عصر « الطفولة البشرية » كما يقول هؤلاء العلماء - يقول تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده »(١٥) ، ويقول : « شرع لكم من الأرض ما وصى به نوحاً »(١٦) .

فالدعوة بأن الرسالة كانت محدودة دون تنظيمات وتفاصيل يدحضها ما جاء في القرآن الكريم بياناً لما بلغه الرسل لأقوامهم ، بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويفعلوا الخيرات ويعملوا الصالحات ، فلا يظلمون في معاملاتهم مع الآخرين ، ولا يسرفوا فيما أباح الله الاستمتاع به ، كما ينبغي عليهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وأن يحكموا بين الناس بالقسط ، وغير ذلك من الأوامر والنواهي

---

(١٥) سورة النساء : ١٦٣

(١٦) سورة الشورى : ١٣

والوصايا التي أنبأنا الله بها في القرآن الكريم ليذكر الناس بما كان عليه الأولون ، مع رسلهم ، لعل هذه التذكرة تحملهم على الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ولم يقصد تسجيل كل ما حدث من الرسل السابقين مع قومهم ، ولا الأخبار بكل ما بلغوه عن الله لهم ، لأنه ليس سجلاً تاريخياً يخبرنا بما حدث من قبل ، بل هو هداية وعلاج للأمراض البشرية ، فلم يذكر فيه من أخبار السابقين إلا ما يقتضي المقام ذكره . فالقول بأن الدعوات السابقة كانت محدودة لعبادة الله دون تنظيمات وتفاصيل : لا دليل عليه ، وبالتالي فلا يصلح دليلاً على صحة نظرية تطور الرسالات السماوية .

أما ما يدعيه هؤلاء العلماء من أنه لم يكن لدعوات عصر « طفولة » الجنس البشري كتب واضحة ، وإنما هي بضع نصائح ، فلا يصلح دليلاً لنظرية تطور الرسالات السماوية ، لاحتمال أن يكون عدم وجود كتب راجعاً إلى فقدانها ، أو إلى عدم تطور الكتابة عند من حملوها ، ولا يمكن أن يكون دليلاً على أن عقلية الإنسان في تلك العصور كانت بدائية ، بدليل أننا نجد آثارا يرجع عهدها إلى آلاف السنين قبل الميلاد ، ومع ذلك تدل على ما كان يتمتع به الإنسان في ذلك العصر من ذكاء وفطنة ، وقدرة فكرية على الإبداع في مجالات قد يعجز ابن القرن العشرين عن فهمها والوقوف على أسرار تكوينها .

فرسالة الله لكل الناس ، سواء ارتقوا في حضارتهم ، أم تخلفوا عن اللحاق بركب التقدم ، وسواء كانوا يعيشون عيشة بدائية ، أم كانوا ينعمون بما أبدعته عقولهم في مجالات الحياة المختلفة ، فدين الله للناس جميعاً .

ويحاول علماء الأديان الذين يرون أن الأديان السماوية تطورت بتطور العقل البشري الاستدلال على صحة رأيهم ، فيقولون : إن عدم ذكر تاريخ محدد لظهور الرسالات في فترة « طفولة » الجنس البشري من العلامات البارزة التي تؤكد صحة هذه النظرية .

وهذا كلام فيه مغالطة ، ذلك أن الإسلام الذي جاء - على حسب قولهم -

بعد أن اكتمل عقل البشرية ، فوصل إلى أعلى درجات التطور ، ليس فيه تحديد زمن معين لأي حادثة وردت فيه ، لأن الوحي السماوي لا يرتبط بزمن معين ولا بعصر محدد ، وإنما جاء لهداية الناس ، وتقويم سلوكهم ، ولا علاقة لهذه الهداية بالتاريخ ، فلا تحتاج إلى تسجيل الزمن ، لأنه ليس جزءاً من العملية التربوية الإلهية ، فهو الإنسان في أي زمن ، وفي أي مكان ، وعلى أعلى درجة من درجات التقدم والحضارة ، فالقول بأن عدم تحديد زمن الرسالات السماوية السابقة دليل على تخلف المجتمعات التي نزلت فيها ، لا يصلح دليلاً على تطور الرسالات السماوية ، لأنه لا حاجة للإنسان في مجال الدعوة إلى الله إلى تحديد سلسلة الرسالات زمنياً ، بمعنى لسنا بحاجة إلى أن يحدد لنا إن كان هود قبل إبراهيم أم بعده ، أم كانت رسالة نوح في عهد زيد من الملوك أم عمرو ، لأن هذه الأمور لا تؤثر على عملية انتشار الدعوة إلى الله ، بل قد تكون من العوامل المعوقة لها ، لأن الآراء كثيرة ومتشعبة في تحديد الزمن التاريخي للحوادث البشرية ، فلو حدد القرآن الكريم زمن الرسالات السماوية لتعرضت معطيات التاريخية لنقاش لا طائل من ورائه ، وخلافات لا تؤدي في مجال الدعوة إلى فائدة ، ولهذا أهملها القرآن الكريم تجنباً للخلاف ، ولأنه لا فائدة من ذكرها في عملية الاقناع بدعوة الإسلام .

وآخر دليل ذكره القائلون بنظرية تطور الرسالات السماوية في تحديد معالم رسالات عصر « طفولة » الجنس البشري ، هو أن الدعوة في تلك العصور - وكذلك في عصور « صبا » الجنس البشري - كانت محدودة بقوم الرسول ، فلم تتعداهم إلى غيرهم . وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، ذلك أن هذا التحديد لم يكن مبعثه تطور الإنسان ، وإنما اقتضته ظروف حياة الجنس البشري ، فالمواصلات كانت بدائية وبالتالي كانت الاتصالات بين أقطار الأرض صعبة ، ولهذا بعث كل نبي لقومه ، لأنه لا يستطيع أن يبلغ الرسالة لأقطار الأرض المختلفة ، نظراً لصعوبة التنقل ، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى

فرعون ويبلغاه وحي الله ، يقول تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغي ، فقولا له قولاً لينا ، لعله يتذكر أو يخشى »[17] فكانت دعوة موسى لفرعون بعبادة الله دليلاً على أنه لم يبعث لقومه فقط ، لأن فرعون لم يكن من قومه . كذلك آمن السحرة بما جاء به موسى مع أنهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى : « فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون »[18] .

كما كان يوسف عليه السلام يعلم من كان معه في السجن شرع الله ، وهم لم يكونوا من قومه ، يقول تعالى حكاية عما كان يقوم به يوسف داخل السجن من الدعوة إلى الله : « ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[19] .

فدعوة موسى لفرعون ، ومحاولة يوسف هداية من معه في السجن دليل على أن دين الله للناس جميعاً ، فما كان حصر دعوة الرسل السابقين على أقوامهم إلا لظروف الاتصالات التي كانت تحول بين النبي وبين دعوة غير قومه . ولهذا عندما كانت ترفع هذه الحواجز كان الرسول يدعو غير قومه .

وعليه فالإسلام لكل الناس ، لأن سهولة المواصلات جعلت في الإمكان دعوة القاصي والداني إلى الدخول فيه .

ويدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، أن معالم المرحلة الثانية ، وهي ما أطلقوا عليها : مرحلة « صبا البشرية » تبدو في ظهور بعض التفصيلات والتفريعات في التشريع ، واستدلوا على ذلك بما ورد في الكتاب المقدس من مسائل تحدد أحكام بعض ما يرتكبه الإنسان من أخطاء وتبين طريقة

---

(١٧) طـه : ٤٣ - ٤٤

(١٨) الشعراء : ٤٦ - ٤٨

(١٩) سورة يوسف : ٣٩ - ٤٠

التقاضي عند التخاصم ، وغير ذلك من التفاصيل التي وردت في الكتاب المقدس في كثر من مجالات النشاط الإنساني .

ويفهم من هذا أن مثـل هذه التفـاصيل والتفـاريع لم تكن موجـودة في الـرسـالات التي سبقت رسـالة موسى عليه السلام ، وهو إدعاء لا يستند إلى دليل ، ذلك أن الباحث عندما يتوصل إلى حكم فيه تمييز بين طرفين ، فلا بد أن تكون عناصر الطرفين موجودة أمامه ، بحيث تكون واضحة المعالم وضوحاً يبرز الجـزئيات التي ترتكز عليها المقارنة في الوصول إلى النتيجة ، فإذا تصورنا هذا المبدأ الأساسي في عملية البحث في موضوعات حديثنا ، فإن المنطق يقتضي أن يكون تحت أيدينا نماذج صحيحة للتشريعات التي نزلت على الرسل قبل موسى عليه السلام ، ويثبت لدينا بالدليل القاطع أنها وحي الله ، بمعنى أنها لم يدخلها تحريف ولا تغيير ولا تبديل .

فهل تحت أيدينا نصوص التشريعات السماوية التي سبقت تشريع موسى عليه السـلام ؟ وهل يمكن لأي باحث أن يصل بأي طريقة - غير ما ورد في القرآن الكريم - إلى تصور معالم الحركات الفكرية لتلك العصور ، بحيث يسلم العقل البشري - طبقاً للقواعد المتعارف عليها في مجال البحث العلمي - أنها من المعالم الأصيلة للتشريع في تلك الحقب ، ويتأكد أنه لم يصل إليها أيدي المولعين بتغيير آثار السابقين ، وتبديدها .

لا يوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يجيب بـ « نعم » لأنه ليس من الممكن عقلاً ولا واقعاً ، أن يعثر الإنسان على نصوص الوحي الذي نُزل على الأنبياء الذين أرسلوا في عصر ما يطلق عليه أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية : عصر « طفولة الجنس البشري » .

وعليه فأحد عنصري المقارنة مفقود ، فكيف يقال : إن المرحلة الثانية من مراحـل الأديان السماوية - حسب رأيهم - تتميز ، بظهور بعض التفصيلات والتفريعات في التشريع ؟

ومن أدراكم أن التشريع فيما تسمونه المرحلة الأولى كان مجملاً ؟

وعلى أي شيء اعتمدتم في ذلك ، ولم يوجد مرجع يمكن الرجوع إليه على الاطلاق ؟ لا يوجد مرجع يمكن أن تستقي منه معلومات صحيحة ، عن الدين في تلك الفترة سوى القرآن الكريم ، فماذا قال عنها ؟

لم يتحدث القرآن الكريم عن أديان تلك الفترة بالتفصيل ، لأنه ليس كتاباً تسجل فيه حوادث السابقين ، وما جاء فيه عن أخبارهم ، إنما سيق للعظة والعبرة حسب ما تقضيه ظروف الحدث الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يذكر الناس به ، حتى لا يضلوا كما ضل من سبقهم ، وجاء ذكر الاستشهاد فيه بأخبار السابقين على موسى عليه السلام فيما يتعلق بمسألة العقيدة دون غيرها ، لأن ذلك نزل في مكة ، حيث كان نشاط الدعوة مركزاً على إقناع الناس بوحدانية الله ، دون غيرها من التشريعات التي نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة ، فعدم ذكر تشريعات هؤلاء الرسل كان لسببين : -

الأول : أن المقام كان يقتضي الاستشهاد بما يساعد على الاقتناع بوحدانية الله ولا ينفع في هذا المقام ، إلا ما تعلق بالعقيدة دون التشريع .

الثاني : أن التشريع لا يحتاج إلى سرد ما يدعمه من تشريعات السابقين ، لأنه يأتي في مرحلة تلي مرحلة الاقتناع ، وما دام الإنسان قد اقتنع بالأساس الذي يقوم عليه الدين ، فمن الضروري أن يتقبل كل ما يشرعه له من آمن بربوبيته ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وهذه قاعدة توجد في جميع المجتمعات البشرية على اختلاف العصور والأقطار التزمها القرآن الكريم لأنه للناس جميعاً .

ويدعى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثانية ، وهي ما أطلقوا عليها مرحلة : « صبا البشرية » تتميز عن سابقتها بنزول كتب على رسلها مثل : التوراة والإنجيل ، زاعمين أن معانيهما فقط هي الموحي بها ، تلك المعاني التي صاغها البشر في تراكيب وعبارات لغوية .

وهذا الزعم ينطوي على عدة أخطاء : -

أولاهما : الجزم بأن الكتب المقدسة لم تظهر إلا في هذه المرحلة ، أما ما سبقها فلم يخرج الوحي فيها عن كونه بضعه نصائح متناثرة لم يجمعها كتاب ، أو دونت في بعض الأحـوال في ألواح وصحف عامة ، وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولا يوجد من بين المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في هذا المجال ما ينفي وجود كتب سماوية في المرحلة السابقة ، كما لم ينص القرآن الكريم على عدم وجود مثل هذه الكتب أو على عدم إنزال كتب على الرسل الذين اصطفاهم الله في هذه المرحلة ، فالاعتماد على أن القرآن الكريم ، لم يصرح بوجود كتب لهؤلاء الرسل كدليل للجزم بعدم وجودها غير مسلم علمياً ، إذ يجوز عدم الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم راجعاً :

- إلى أن مقام سرد الأحداث لا يتطلب ذلك .
- إدراك أن اندثارها جعل الحديث عنها لا فائدة فيه في مجال محاورة الرسل لأقوامهم في مجال إقناعهم بوحدانية الله .

ثانيها : الادعـاء بأن ما أنـزل من التـوراة والإنجيل هو معناها فقط ، وتولى الاتباع صياغة هذه المعاني إدعاء خطير ، ذلك أنه قد يترتب عليه عدم صحة تحريفها ، لأن التحريف لا يتصور إلا لوحي مصوغ بأسلوب إلهي ، أما تغيير ما يصوغه البشر فلا يسمى تحريفاً بالمعنى المفهوم الذي أشار إليه القرآن الكريم في أكثر من آية ، منها قوله تعالى : « أفتطعمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعملون »[٢٠] ، فالتعبير بـ « كلام الله » يدل على أن ما حرفوه كانت كلاماً مصوغاً في أسلوب لغوي وليس معنى ، إذ لو كان التحريف واقعاً على المعنى لما عبر بـ « كلام الله » بل بأحكام الله ، لأن

(٢٠) سورة البقرة : ٧٥

الـذي يغير في هذه الحالة لا يغير كلاماً ، وإنما يغير مفهوماً أراده الله سبحانه وتعالى .

ثالثها : من المعروف أن كلا من التوراة والإنجيل قد كتبا بعد نزول الوحي على كل من موسى وعيسى عليهما السلام بزمن معين ، فهل تناقل الناس معاني الوحي من وقت نزوله حتى كتابته بمعناه ، أي بدون أسلوب يدل على ما فيه من أحكـام ؟ وكيف بلغـه الـرسل ؟ بألفاظ أم بغير ألفاظ ؟ إن كان بألفاظ فقد أصبحت صياغة مقدسة لا يجوز تحريفها ، وإن كان بغير ألفاظ فهو مستحيل ، لأن المعاني والأفكار لا تخرج عن دائرة القوى المفكرة إلا في ثوب ألفاظ ، بل إن تصورها في الذهن مرتبط بالألفاظ التي تدل عليها ، فالقول بأن الوحي نزل بالمعنى وصاغه البشر كلام لا يقبل ، فلو قيل : إنه بالمعنى وعبر عنه النبي الموحي إليه بلفظه لكـان ذلك إلهاماً ، ولم يقل أحد إن الشرائع نزلت كلها على الرسل بطريق الإلهام .

ولكن كيف نفسر ظاهرة عدم وجود كتب مقدسة قبل موسى عليه السلام ؟

إنها ظاهرة طبيعية ، ذلك أنه ليس لدينا أثر يبين لنا صورة واضحة لحياة الإنسان قبل ستة آلاف سنة ، وما وجد من آثار تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة الإنسانية فيما قبل زمن تدوين نص التوراة الموجودة بين أيدينا ، فليس فيه كتاب بالمعنى المفهوم لنا من هذه الكلمة ، وإنما هي بعض نقوش تعبر عن صورة غير متكاملة لبعض أنشطة الحياة المختلفة ، حتى الجانب الديني ، فإننا نجد أن ما يعبر عنه هو أقوال متفرقة هنا وهناك ، وجدت منقوشة على جدران ما تركوه من آثار وما خلفوه من أوان أعدت للاستعمال ، فعدم وجود كتب الرسل السابقين نتيجة لهذه الظاهرة العامة ، وترك القرآن الكريم الحديث عنها ، أمر طبيعي ، لأنه لم يتحدث عن السابقين إلا لضرب الأمثال في معرض الحوار والمناقشة حول وحدانية الله ، ولا يتطلب هذا المقام حديثاً عن كتب لا وجود لها ، ولا يعرف

المجادلون عنها شيئاً .

إن من الخطأ العلمي أن يعتمد القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية على التوراة الموجودة بين أيدينا في الاستدلال على صحة رأيهم ، ذلك أن هذا النص لا يمثل الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام حتى يمكن القول - كما يدعـون - بأن من مظاهر هذه المرحلة - وهي ما يسمونها مرحلة : « صبا البشرية » - أنها ذكرت تواريخ ، ولكنها غير دقيقة ، لأن هذا القول ينسب إلى الوحي عدم الدقة ، فهم يتحدثون عن تطور الأديان السماوية التي نزل بها الوحي من السماء ، في حين أن ما بين أيدينا لا يعبر عن الوحي ، وإنما هو حصيلة الثقافة الدينية لشعب اليهود ، صاغها كتاب العهد القديم بأسلوبهم ، ومما لا شك فيه أن فكرهم لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن مضمون الوحي الذي نزل على موسى عليه السـلام ، بل اختلط به كثير من الثقافات الأخرى ، التي احتك بها الشعب اليهودي في مسيرته التاريخية .

ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك نص واحد في بداية مرحلة تدوين الثقافة الدينية للشعب اليهودي ، بل وجد العديد من النصوص ، ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة ، ثم ظهر اتجاه في القرن الأول قبل الميلاد إلى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتـاب المقدس لم يتم إلا في القرن الأول بعد الميلاد ، وهو ليس بين أيدينا اليوم ، إذ أن أقدم نص عبري للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

فإذا كان هذا وضع الكتاب المقدس ، فكيف يعتمد عليه في الاستدلال على نظرية التطور في الأديان السماوية ؟

إن نظرية التطور تنسب إلى الوحي أشياء ليس من طبيعته التحدث عنها ، ألا وهي تحديد الـزمن ، ذلـك أن الـرسالات السماوية جاءت لهداية الإنسان وعلاجه من الأمراض الاجتماعية ، حتى تقوم المجتمعات الإنسانية على أسس سليمـة تحفظها من التفكك والانهيار ، ولما كانت خصائص الإنسان العامة ،

واحتياجاته الأصلية لا تختلف من زمن لآخر ، ولا تتفاوت بتفاوت الأقطار والأمصار كان دين الله واحداً من يوم بدء خلق الإنسان حتى عصرنا الحالي وإلى أن تقوم الساعة ، ولذا فلا مجال لذكر التاريخ في مرحلة وعدم ذكره في أخرى ، كما يدعى القائلون بنظرية التطور في الأديان السماوية ، لأن الإنسان واحد في كل مراحله ، وما يعتريه من ضلال في العقيدة وأمراض في السلوك على اختلاف الأجيال والعصور تكاد تكون متطابقة : كفر بالله ، وعبادة الأصنام واستغلال القوى للضعيف ، وإشاعة الفاحشة في المجتمع ، وتسلط المادية على حياة الناس . . . و . . . . . و . . . . إلخ .

ولهذا فحين قص القرآن الكريم على محمد ﷺ أخبار السابقين لم يحدد زمن وجودهم ، ولم يذكر تاريخ الأحداث التي قصها ، لأنه ليس من العناصر الرئيسية المرادة من سرد هذه الأحداث ، ولأن طبيعة الحدث عامة ، فمن الممكن أن يحدث في أي زمن وفي أي مكان ، فتحديدها بزمن معين يفقدها صفة العمومية ويحصرها في دائرة محلية ، وهذا يتنافى مع عموم الرسالة .

فما جاء في الكتاب المقدس من تحديد زمن بعض الأحداث لا يعبر عن وحي ، وإنما هو رأى الكاتب ، ومادام الكاتب بشراً فهو لا محالة سوف يخطيء في تحديد التاريخ ، خاصة أن وسائل البحث في مجال التاريخ لم تكن قد تقدمت في ذلك العصر .

وعليه فخطأ المعطيات التاريخية في الكتاب المقدس لا يدل إلا على ضعف الإنسان في مجال التصورات التاريخية في ذلك العصر . فلا يصلح على الإطلاق أن يتخذ دليلاً على التطور في الأديان السماوية ، لأن تحديد التاريخ ليس جزءاً من عملية هداية الإنسان إلى طريق الحق ، وعلاجه من الأمراض الاجتماعية .

ولهذا كان وحي الله عاماً لكل الناس ، لم يحدد بزمن دون آخر ، ولم يخصص لشعب معين ، أو يقصر على إقليم دون غيره من أقاليم الأرض ، يقول تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ويرى أصحاب نظرية التطور في الأديان السماوية أن المرحلة الثالثة – وهي ما أطلقوا عليها مرحلة : « شباب الجنس البشري » تتميز بوضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام .

وهذا قول ينطوي على إتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ، ولم يحطموا الأصنام وفي ذلك أيضاً إنكار – أو إغفال – لما جاء في القرآن الكريم ، فقد جاء فيه الحديث عن جهود الأنبياء السابقين في بيان وحدانية الله بصورة واضحة ، ليس فيها غموض ولا تورية ، فلو استعرضنا ماقاله الرسل السابقون لأقوامهم لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله وترك عبادة الأصنام ، فنوح قال لقومه : « إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون »(٢١) ، وقال هود : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره »(٢٢) ، وكذلك قال صالح .

كما حطم إبراهيم الأصنام بيده ، يقول تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهم وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا ، إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون »(٢٣) .

ألا يدل هذا على وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ عبادة الأصنام ؟

ثم ألا يعد ما فعله إبراهيم عليه السلام تحطيماً للأصنام ؟

فالقول بأن ما يمز المرحلة الثالثة – طبقاً لما يرونه من تقسيم تاريخ الأديان السماوية إلى مراحل – هو وضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام لا يستند إلى

---

(٢١) الشعراء : ٢٠٥

(٢٢) الأعراف : ٦٧

(٢٣) الأنبياء : ٥١ – ٥٨

دليل ، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت خلافه ، ألا وهو أن هذه كانت السمات العامة لكل الأديان من آدم إلى محمد ﷺ : وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ومحاربة كل صور الشرك وعبادة الأوثان ، والأصنام ، يقول تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب »(٢٤) ويقول : « ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك » (٢٥) .

ويبدو أن السبب في قوع العلماء في هذا الخطأ هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم في وضوح الوحدانية فيه ، وحربه على عيادة الأوثان ، وبين ما في نص الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا من خلط في مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك ، أو قبول ما توحي به ، وهذه المقارنة قائمة على أساس غير سليم ، إذ لا تجوز المقارنة بين وحي الله ، وما كتبه البشر ، الذي خلط فيه بين ما هو صالح وآخر سيء يتنافى مع ما نزل على الرسل السابقين .

ولهذا ينبغي علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيداً ، وعدم قبول أي صورة من صورها ، فدين الله واحد ، ورسالة الأنبياء في أصولها واحدة ، وخصائص دعواتهم متطابقة :

ففي دائرة الألوهية دعوا كلهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

وفي دائرة الرسل اعترفوا جميعاً بأنهم بشر ، وأن وظيفتهم لم تتعد البلاغ للناس .

كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل ما في الوجود ، فهو واهب الحياة للناس في الدنيا ، وباعثهم للجزاء في الحياة الأخرى .

---

(٢٤) الشورى : ١٣
(٢٥) فصلت : ٤٣

كما دعوا جميعاً إلى الخير والعمل الصالح ومكارم الأخلاق . وحاربوا الشر والرذيلة والفساد .

كما وضح من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحداً ، فقد كانوا مصرين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله .

هذه هي الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة كما ذكرها القرآن الكريم ، فليس فيها ما يشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلو جميعاً للإنسان باعتباره بشراً فجميع الأجناس تشترك في الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعاً من حيث هم بشر ، جاءتهم من الله ، وهو خالق الناس جميعاً : « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »[٢٦] .

وأخيراً يجرى على السنة المسلمين أن الأديان الثلاثة : « اليهودية والنصرانية والإسلام » . . . أديان سماوية ، ويتدارس طلاب العلم في مدرجاتهم الدراسية القضايا الدينية على أساس صحة هذه القضية ، بل يتناول الباحثون والمتخصصون في المجال الديني المسائل المشتركة بين الأديان الثلاثة ، بحثاً ودراسة واستنتاجاً من منطلق الاعتقاد بأن الله أنزل اليهودية على موسى وأنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام .

شاع هذا الرأي بين المسلمين واعتنقه جمهرة العلماء على الرغم من أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تؤكد أن الإسلام فقط هو الدين السماوي ، يقول الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام »[٢٧] أي أن الدين المنزل من السماء هو الإسلام لا غيره .

---

(٢٦) النساء : ١٧٠
(٢٧) آل عمران : ١٩

ويقول : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »[٢٨] أي أنه لم يكن معتنقاً دين اليهودية ، ولا مؤمناً بدين النصرانية ، ولكن كان على دين الإسلام .

ويحكى القرآن الكريم دعاء يوسف ربه فيقول : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والأخرى توفني مسلماً وألحقني بالصالحين . . »[٢٩] .

وقد وردت آيات كثيرة على لسان رسل وصالحين ، عاشوا قبل محمد ﷺ يدعون فيها ربهم أن ينعم عليهم بالإسلام ، وأن يوفقهم إلى أن يموتوا مسلميسن ، ولم ترد آية واحدة ، تذكر أن أحداً من السابقين على الإسلام سأل ربه أن ينعم عليه باعتناق اليهودية والنصرانية ، ذلك أن الله لم ينزل دينا سماه بهذا الأسم ، فلم يذكر في كتابه الكريم أنه أنزل اليهودية على موسى ، أو أنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام ، لأن اليهودية نسبة إلى يهودا ، والنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة التي انتسب إليها أتباع عيسى عليه السلام .

إذاً ، فلا علاقة للتسمية بما أنزل الله على هذين النبيين ، فما أنزل على موسى هو الإسلام ، وما أنزل على عيسى هو الإسلام ، أما ما أطلق عليه اسم : « اليهودية » فهو عبارة عن تسمية لما عند اليهود من المباديء ، والتشريعات الدينية التي جمعوها من تراثهم ، أي أنه وحي اختلط بما أخذوه من روافد ثقافية أخرى . ولا شك أن هذا الجديد يحمل من المعالم ما جعله يختلف كلية عما نزل على موسى عليه السلام ، وهو الذي سمى بـ « اليهودية » .

فاليهودية هي من صنع اليهود ، وكذلك النصرانية ، أما ما نزل على موسى فهو الإسلام ، وهو نفسه الذي نزل على عيسى ، لأن الله يقول : « إن الدين عند الله الإسلام » أي أن الدين الذي نزل من عند الله هو الإسلام سواء نزل

---

(٢٨) آل عمران : ٦٧

(٢٩) يوسف : ١٠١

على موسى أو على عيسى عليهما السلام أو على غيرهما من الأنبياء السابقين ، ولكن عندما اختلط بالثقافات البشرية ، وضاعت معالم الإسلام ، أخذ اسماً آخر مقتبساً من الملابسات التي مرت بالاتباع ، سواء تعلقت بشخص أم بمكان .

والـدليل على أن دين الله ، الـذي نزل على الأنبياء جميعـاً واحـد ، وهو الإسلام أن كلمة « دين » لم تأت في القرآن الكريم بصيغة الجمع ، « أديان » على الاطلاق ، لأن دين الله واحد ، وإن تعددت رسالاته ورسله ، « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وأنه لكتاب عزيز ، لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك »[٣٠] .

ولم يأت تعدد الرسالات إلا لتصحيح ما حرف ، لأن المجتمعات البشرية دأبت على تغيير الرسالات بعد رسلها ، فكلما طال الزمن ، بعد الرسل ، تمادى الناس في غيهم وضلالهم فحرفوا وبدلوا ، فإذا ضاعت معالم الرسالة ، أرسل الله رسـولاً آخـر ليبلغهم الـرسـالة من جديد حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فحفظت رسالته من التحريف والتبديل ، يقول تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[٣١] .

لأن الله قد كتب في الأزل أنه سيكون خاتم الرسل ، فحفظ القرآن الكريم مما أصاب ما نزل على الرسل السابقين ، ولذا لم يعد الأمر في حاجة إلى إرسال رسول آخر .

وجملة القول إن دين الله واحد ، هو الإسلام ، وهو ما أنزله الله على جميع الأنبياء ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » أما ما يعرف باليهودية ، وكذلك ما في أيدي النصرانية ، من مبادي وتشريعات دينية لا صلة لها بالإسلام إلا باعتبارها منسوبة في أصلها ، إلى من أنزل عليه الإسلام

(٣٠) فصلت : ٤١ - ٤٣
(٣١) الحجر : ٩

من قبل ، وهما موسى وعيسى عليهما السلام ، أو باعتبار أن فيهما بعضاً مما أنزله الله عليهما ،وإن كان هذا البعض قد اختلط بما أضافه اتباعهما إلى وحي الله ، ولهذا أطلق القرآن عليهم « أهل الكتاب » نسبة إلى الكتاب الذي في أيديهم ، باعتبار إن فيه شيئاً منسوباً إلى نبي من أنبياء الله ، ولم يطلق عليهم اسم يدل على أنهم اتباع دين نزل من الله على هذين النبيين . لأن ما يتسمون به وهو « اليهودية » أو « النصرانية » ليس ديناً من عند الله ، وإنما هو علم على مجموع الثقافات الدينية التي اتخذوها ديناً لهم .